
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

ما هي "أمريكا" ؟
أو البنى الأربع للامبراطورية
(الروح، القشتال، الريزوم، الشبكة)

فتحي المسكيني*

مازال هناك وقت طويل سوف يمرّ قبل أن ينجح الأوروبيون في أن يرسّخوا فيهم, في الهنود الحمر" قليلا من حب النفس"

هيغل

"نحن نعلم اليومَ، أنّ العالم الأنغلوسكسوني للأمركة قد قرّر تدمير (vernichten) أوروبا، وذلك يعني تدمير الوطن، أعني تدمير البدء الخاص بالعنصر الغربي (den Anfang des Abendlandischen.) إنّ البدئيّ (Anfangliches) لا يقبل أن يُقضى عليه. وإنّ دخول أمريكا في هذه الحرب الكوكبية ليس دخولا في التاريخ، بل هو بعدُ الفعلُ الأمريكي الأخير للاّتاريخية الأمريكية و تخريبها لذاتها. وذلك أنّ هذا الفعل هو رفض لما هو بدئي و قرار من أجل ما لا بدء له (das Anfanglose.")

هيدغر

" إنّ الجهات لم تعد هي نفسها في أمريكا: إنّما في الشرق (l'Est) صار يتمّ البحث الشجري و العودُ إلى العالم القديم. في مقابل ذلك ثمّة الغرب (l'Ouest) الريزوماطيقي، بهنوده الذين لا نسبَ لهم، وحدّه (sa limite) الهارب باستمرار، وتخومه (ses frontieres) المتحرّكة والمنزاحة عن أماكنها. ثمّة "خارطة" كاملة في الغرب، حيث أنّه حتى الشجر نفسه قد قام مقام الريزوم."

دولوز /غواطاري

"إنّ الفكرة المعاصرة للإمبراطورية قد تولّدت عن التوسّع العالمي للمشروع الدستوري الداخلي لأمريكا."

نغري / هاردت

مقدمة : أمريكا، "يونان فلسفية" جديدة ؟

"ما هي أمريكا؟" – سؤال صار يملك اليومَ كلّ الوجاهة الفلسفية لأنْ يُطرح طرحا مطلوبا لذاته، وليس فقط بوصفه فضولا فرضه العقل اليومي. لنقل : إنّه آن الأوان لأنْ نؤرّخ لمشكل لم يجد فلاسفة من حجم هيغل أو هيدغر أو دولوز أو رورتي أيّ حرج من أن يخوضوا فيه، وعلى ذلك هو ما يزال يُنظر له بوصفه موضوعة جيوسياسية ، لئن كانت أهمّ حدث معاصر، فهي لا ترتقي إلى الأهلية الميتافيزيقية التي تنطوي عليها فكرة "اليونان" الرومانسية.

من أجل ذلك فإنّ سؤالنا "ما هي أمريكا؟" ينبغي أن يُسمع بوصفه تنويعا خافتا ومُشكَلا للسؤال الرومانسي "ما هي اليونان؟" الذي ظلّ يحرّك الفلسفة الأوروبية من كانط إلى فوكو و دولوز، مرورا بهغيل وشيلنغ إلى نيتشه وهيدغر وهوسرل. لقد اعتقد هذا الجيل ما بعد الرومانسي من الفلاسفة أنّ الإجابة عن السؤال السري للفلسفة المعاصرة، أي السؤال "ما هي

* جامعة تونس-المنار

أوروبا؟"، إنّما هي رهينة النجاح في اختراع "اليونان" الفلسفية المناسبة، التي من شأنها أن تشكّل أفق الانتظار الفلسفي الذي يخصّنا، نحن السكّان مابعد-اللاهوتيين للمعمورة.

ولكن من أجل أنّ خطة التفلسف تحت هدي إغريق مجازيين، التي ازدهرت من هيغل إلى هيدغر، قد أخذت تفقد فعاليتها الخطابية المعهودة منذ أن خضع الخطاب الفلسفي نفسه إلى تحويل حاسم من أفق اللغة/التعبير الرومانسية إلى نطاق اللغة/التحليل الوضعانية، - و من أجل أنّ الإغريق قد فقدوا فجأةً كل نموذجيتهم و انقلبوا إلى أمراض طفولية آن للفلسفة أن تبرأ منها ببناء لغة مثالية للتفكير على طريقة العلوم أوّل الأمر، ثمّ بالتدرّب على لغة عادية إنجازية لا مكان فيها للفتوحات الاستطيقية آخر الأمر، - فإنّ علينا الإقرار دون مواربة بأنّنا مدعوون إلى نمط غير مسبوق من التفلسف، لن يكون فيه السؤال الهادي هو " ما هي اليونان الفلسفية؟" كما اخترعه أفلاطون، بل السؤال الخافت اليوم " ما هي أمريكا الفلسفية؟" . ربّ سؤال يبدو لنا أنّ جمعا من الفلاسفة المعاصرين من هيغل إلى رورتي قد بدأ بعدُ في ارتسام ملامح التفكير فيه.

إنّ غرضنا هنا هو معالجة السؤال البعيد التالي: **ما هي الدلالة الفلسفية لأمريكا كما تراءت للفلاسفة أنفسهم؟**

نحن نرنو بأعيننا هنا إلى فلاسفة بعينهم، هم **هيغل** و**هيدغر** و**دولوز/غواطاري** و**نغري /هاردت**، بوصفهم أهمّ من تصدّى للدلالة الفلسفية لأمريكا بوصفها مشكلا نظريا هو مدعاة للتفكير الجوهري في ماهية الإنسانية الحالية، وليس فضولا جيو-سياسيا عاديا. - إنّ "أمريكا" قد ارتقت منذ هيغل إلى رتبة مقوّم من مقوّمات جغرافية الروح الذي صار يشكّل و يتحكّم اليوم في بنية الإنسانية الحالية. ولذلك هي "مفهوم" بالمعنى القويّ للتسمية: إنّ "روح" تأمّلي (هيغل) و "قشتال" تقني (هيدغر) و "ريزوم" مترحّل (دولوز /غواطراي) و "شبكة" بلا حدود و لا قومية (نغري /هاردت).

بيد أنّ ما هو مثير حقّا في هذه الدلالة هو كونها قد ارتبطت في كل مرة بمسألة "الحرب" : إنّ السمة الحاسمة في دلالة أمريكا لديهم هي علاقة مفهومية و ماهوية و جيوفلسفية بالحرب. وآن لنا أن نسأل: ما طبيعة العلاقة بين أمريكا و الحرب؟ هل تكون أمريكا هي التحقيق الكلي لماهية الحرب؟ أم أنّ الحرب هي التجلي القدريّ لماهية أمريكا في أفق الإنسانية الحالية؟

قد يقول قائل : ولكن لمَ نولّي وجوهنا قبلة هؤلاء الفلاسفة بالذات بحثا عن جواب ما عن سؤالنا " ما هي أمريكا؟"، وليس قبلة الفلاسفة الأنغلوسكسونيين أنفسهم ، مثل رورتي أو فوكوياما ؟ - إنّما ذلك للسبب التالي: أنّ رورتي، المفكّر ما بعد الحديث الأنغلوسكسوني ، لئن كان يقرّ بـ"عرضية الجماعة" (contingence de la communaute) التي ينتمي إليها ميتافيزيقيا، ويدعونا إلى التفكير بوصفه "تهكّما" ما بعد فلسفي في الاستعمال الخاص للعقل، فهو لا يرى من بديل للمجتمع الأمريكي، وذلك بوصفه الأفق التاريخوي (historiciste) الوحيد للاستعمال العمومي للعقل من أجل فهم أنفسنا الحديثة[1]؛ أمّا فوكوياما، فهو يمثّل الفهم العامي للزمان الأمريكي، حيث يبشّرنا بأنّ الإنسان الليبرالي هو تتويج سعيد لحركة "شوق الاعتراف" من "ثيموس" (*thymos*) الأفلاطوني / النزوع أو الغضب الفلسفي إلى "الكبرياء" الهوبزية إلى "حبّ

1) R. Rorty, *Contingence, ironie et solidarité*. Part. 1, ch. 3.
2) F. Fukuyama, *La fin de l'histoire et le dernier homme*. ch. 15.

النفس" الروسوي إلى "نزاع الاعتراف" الهيغلي إلى "الدابة ذات الوجنات الحمراء" النيتشوية[2].

ربّ صعوبات قد يجدر بنا أن نأتي إلى استيضاحها من طريق الاستفسارات التالية:

1) إلى أيّ مدى يمكننا أن نفكّر في "أمريكا" بوصفها فكرة فلسفية ؟ أو هيغل و أمريكا/"الروح" (*Geist*) **التأمّلية**

2) بأيّ معنى يمكن اعتبار أمريكا الوجه الأقصى من "الماهية الحربية للذات" الحديثة ؟ أو هيدغر و أمريكا / "القشتال" (*Gestell*) **التاريخانية**

3) ما العلاقة بين أمريكا "جهاز الدولة" و أمريكا "آلة الحرب" المترحلة ؟ أو دولوز/غواطاري و أمريكا/ "الريزوم" (Rhizome) **النومادولوجية**

4) هل ثمّة اليومَ فرق حقيقي بين أمريكا و الامبراطورية التي تقود العالم ؟ أو نغري /هاردت و أمريكا / "الشبكة" (le reseau)

I - أمريكا " التأمّلية" : أو الحرب بوصفها "نزعا للإقليمية" (deterriorialisation) عن الروح القومي لشعب ما؛ الهنود الحمر نموذجا

حقيق علينا أن نتمهّل، متى فحصنا عمّا كتبه هيغل عن أمريكا ضمن **دروس في فلسفة التاريخ**، عند وصف شبه كلبي للحرب التي خاضها الرجل الأبيض ضدّ سكّان أمريكا الأصليين، وذلك بوصفها حربا تؤدي مهمة ماهوية في مسيرة الروح.

إنّ هيغل قد أجابنا بذلك عن هذا السؤال: ما هو الأصل الروحي لأمريكا؟

إنّ أصل أمريكا هو الحرب ضد السكّان الأصليين. إنّ أصل أمريكا هو الحرب ضد الساكن الأصلي في أرض ما. ذلك يعني أنّ ماهية الحرب قد تغيّرت على نحو غير مسبوق: إنّها لم تعد مبدأ "كوسميا" (نزاع الأضداد لدى هرقليدس)أو "مرضا" مدنيا (أفلاطون) أو ضربا من "الصيد" البشري " للّذين ولدوا من أجل أن يُحكموا" (أرسطو)[3]أو "فضيلة" بالمعنى الماكيافيلي (*virtu*) لا جدوى منها إلاّ إذا كان الأمير يدافع عن إمارته بمواطنيها و ليس بالمرتزقة أو " هيمنة بشر ما على الآخرين، بسبب أنّ ذلك ضروري من أجل بقائه" (هوبز)[4]، أو "علاقة دولة بدولة أخرى، حيث لا يكون الأفراد أعداء إلاّ عرضا" (روسو)[5] أو "مواصلة سياسة الدولة بوسائل أخرى" (كلاوسفيتز) أو حتى "ظاهرة العدوان (phenomene d'hostilite) المؤسسة على مقياس "العدو و الصديق" العدو العمومي وليس الشخصي (كارل شميت)[6].

كلّ هذه المعاني لا تمسّ ماهية الحرب التي تأسّست عليها أمريكا بوصفها حدثا فريدا من نوعه في تاريخ الإنسانية الحديثة. إنّ أمريكا قد قامت على حكم قيمة حضاري وميتافيزيقي يقضي بتفوّق الإنسان الأوروبي على الإنسان الهندي و الإفريقي؛ إنّها ليست حربا أداتية حول الحكم أو حربا دينية حول المقدس. إنّها حرب من أجل نزع محض للإقليمية التي يتمتّع بها

3) Aristote, *Politiques*, I,8,1256-b.
4) Hobbes, *Léviathan*, Partie I, ch. Xiii.
5) Rousseau, *Du contrat social*, Livre I, ch. 4
6) Carl Schmitt, *La notion de politique. Théorie du Partisan* (Paris : Champs/Flammarion, 1992), pp. 66 sqq.

الساكن الأصلي في أرضه. إنّ الأمر يتعلق بحرب بدائية معاصرة، وجدت في سيادة الذات الحديثة على الموضوع أساسها الأخلاقي.

ولذلك لا ينبغي أن نأنف هنا من أن نوجّه إصبع الاتهام إلى الفلاسفة الذين تعوّدنا قراءتهم دون أيّ محاسبة أخلاقية أو إنسانوية لمواقفهم النظرية، وبخاصة الفلاسفة ما بعد الرومانسيين من هيغل إلى رورتي مرورا بهيدغر، الذين لا يتحرّجون في تطبيق الرسم التاريخوي للغرب بوصفه طوبيقا ميتافيزيقية سعيدة علينا الأخذ بها أو خرجنا من دائرة المفهوم الفلسفي بما هو كذلك.

فإنّه من المثير حقّا أنّ هيغل يُقدّم حضارة الساكن الأصلي هذه بأنّها " حضارة [ما تزال] طبيعية تماما و من ثمّ أنّها ينبغي أن تنهار عند أوّل تماس لها مع الروح"[7] الأوروبي.

ويقول: " فيم يتعلق بالجنس البشري، فإنّه لم يبق منذ الآن غير قليل من الأمريكيين الأوائل، حوالي سبعة ملايين قد تمّ القضاء عليهم. إنّ سكّان جزر الهند الغربية قد أفلوا ، وبعامة إنّ العالم الأمريكي بتمامه قد انقرض تحت الوطأة القاهرة للأوروبيين [...] إنّ هذه الشعوب ذات البنية الضعيفة قد تداعت للانقراض عند التماس مع شعوب أكثر تحضّرا، وأكثر ثقافة ."[8]

إنّ القضاء على سبعة ملايين بشر لا يغيّر من الحياة الإتيقية للروح المطلق شيئا. واللافت للنظر هو أنّ هيغل يسجّل هذا الانهيار الحضاري وهذا الانقراض القومي بوصفه حدثا تأمّليّا في فلسفة التاريخ وليس مشكلا أخلاقيا مريعا. أمّا ما هو كلبي فعلا في هذا السلوك التأمّلي إزاء هذه الشعوب المنقرضة فهو أنّ هيغل ليس فقط يزعم أنّ الأوروبيين هم الذين علّموا "حاجة الاستقلال" (le besoin de l'independance) للهنود المولّدين من دم أبيض (les creoles)، بل هو قد أعذَر أبناء جلدته قائلا : " مازال هناك وقت طويل سوف يمرّ قبل أن ينجح الأوروبيون في أن يرسّخوا فيهم [في الهنود الحمر] قليلا من حب النفس."[9]

بذلك هو لا يرى أيّ مانع من أن يمارس الآباء اليسوعيون إزاء الهنود الحمر أبوية أخلاقية يومية يبلغ حدّ ترويج سردية إثنو-مركزية لم يتردد هيغل في الاستشهاد بها. يقول هيغل :" أنا أتذكّر أنّي قد قرأت أنّ قسّيسا كان يضرب عند منتصف الليل جرسا يذكّرهم بإنجاز واجباتهم الزوجية، وذلك، أنّهم حتى ذلك ، متى تُركوا لأنفسهم، لا يخطر لهم على بال."[10]

ولأنّ هيغل لا يسرد هذه القصة تفكّهًا، بل داخل أفق تفكير له اتساقه القيمي الخاص، فهو لا يتردد في القول بأنّ " ضعف المزاج الأمريكي قد كان واحدا من الأسباب الرئيسة لاستجلاب السود إلى أمريكا: فقد جيء بهم لاستغلال قواهم في الأشغال، نظرا لقدرتهم المتميزة على استيعاب الحضارة الأوروبية، متى قورنوا بالأمريكيين." [11]

إنّ هيغل قد برّر بذلك الجريمتين التاريخيتين الّتين قامت عليهما أمريكا، نعني إبادة الهنود الحمر واستعباد السود، بوصفهما حدثين روحيين لهما تفسيرهما التأمّلي في فلسفة التاريخ. ربّ تفسير لم يجد له من أساس حاسم سوى التفوّق التاريخي للحضارة الأوروبية على

---

7) Hegel, *La raison dans l'histoire*. Ed. 10/18, Paris, 1965, p. 232.
8) Ibid.
9) Ibid. p. 233.
10) Ibid. p. 234.
11) Ibid
12) Ibid. p. 235

الحضارات الأخرى، والذي تستمده من توفّرها على "مركز حياة جماعية بدونه لن يكون هناك دولة" [12]– هذا المركز ليس شيئا آخر سوى "الفردانية الأوروبية" (l'individualisme europeen) فزالتي قامت عليها مغامرة العصور الحديثة.

II - أمريكا التاريخانية و "الماهية الحربية للذاتية": هيدغر وأمريكا/القشتال الأوروبي ضدّ نفسه

ثمة أربعة مواضع، على الأقل، تعرّض فيها هيدغر الثاني إلى دلالة أمريكا في أفق تاريخ الوجود. ونعني بخاصة: سنة 1935، ضمن الفصل الأول من **مدخل إلى الميتافيزيقا**، حيث يعلن أنّ " روسيا وأمريكا إنّما هما الاثنان، من جهة نظر الميتافيزيقا، نفس الأمر؛ نفس الجنون المخيف للتقنية التي لا قيد لها، والتنظيم المنبتّ للإنسان المقنّن" [14] ؛ وسنة 1938، ضمن زيادات على مقالة "عصر العالم الصورة"، حيث يصرّح بأنّ " الأمركة إنما هي شيء أوروبي. فهي نوع، غير مفهوم بعدُ، من الهائل، هائل ما يزال بلا أيّ نقطة ارتكاز، بمعنى ما يزال لا ينبثق أبدا من الملاء المتجمّع للماهية الميتافيزيقية للأزمنة الحديثة" [15]؛ وسنة 1941 ضمن درس **مفاهيم أساسية**، حيث يصف "إنسان اليوم" الذي يستمدّ ثقافته الماهوية من الجرائد اليومية، بأنّه " إنسان أمريكي محض " لا يعرف ما معنى "القراءة" أصلا [16]؛ وأخير سنة 1942، ضمن درس أنشودة هلدرلين "Der Ister" (نهرالدانوب في تسميته الرومانية)، حيث يعلّق هيدغر على دخول أمريكا في الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا [17].

نحن لن نقف هنا إلاّ عند هذا الموضع الأخير ، من قبل أنّه يفيدنا في إيضاح طريف للعلاقة الماهوية بين أمريكا و الحرب.

يقول هيدغر :" نحن نعلم اليومَ، أنّ العالم الأنغلوسكسوني للأمركة قد قرّر تدمير (vernichten) أوروبا، وذلك يعني تدمير الوطن، وذلك يعني تدمير البدء الخاص بالعنصر الغربي (.des Abendlandischen den Anfang) إنّ البدئيّ (Anfangliches) لا يقبل أن يُقضى عليه. إنّ دخول أمريكا في هذه الحرب الكوكبية ليس دخولا في التاريخ، بل هو بعدُ الفعلُ الأمريكي الأخير للّاتاريخية الأمريكية و تخريبها لذاتها. وذلك أنّ هذا الفعل هو رفض لما هو بدئي و قرار من أجل ما لا بدء له (das Anfanglose). إنّ الروح الخفيّ للبدئيّ في الغرب لن يجد في نفسه موضعا حتى ولو لنظرة احتقار إزاء هذه السيرورة من التخريب الذاتي للذي لا بدء له، بل سوف ينتظر موعده مع القدر في طمأنينة السكون الذي من شأن العنصر البدئيّ. إنّنا لا نفكّر دوما في تاريخيّ التاريخ إلاّ في جزء منه فحسب، وذلك يعني هنا دائما أنّنا لا نفكّر بعامّة، متى كنّا نحتسب التاريخ و عظمته بواسطة طول المدة التي من شأن ما كان، بدل أن **ننتظر** أوّلا ما كان بوصفه البدء كأنّنا ننتظر الآتي و المقبل. نحن نقف تحديدا في بداية التاريخية الأصيلة، بمعنى في بداية الفعل في ما هو ماهوي انطلاقا من القدرة على انتظار بعثة الأمر الذي يخصّنا [...] القدرة على الانتظار تعني البقاء المتوثّب سلفا ضمن ما لا يمكن القضاء عليه." [18]

إنّ اللافت للنظر لدى هيدغر هو كونه قد وضع حدّا للاحتفاء المعاصر بظهور أمريكا، سواء الاحتفاء الفلسفي بها بوصفها ظاهرة طريفة في أفق فلسفة التاريخ (مع هيغل) أو الاحتفاء

---

13) Ibid. p. 236
14) Heidegger, *Introduction à la métaphysique*. (Paris : Gall. Coll. Tel, 1967) pp. 48-49.
15) Heidegger, «L'époque des "conceptions du monde"», in : Chemins… (Gall., coll. Tel) pp. 145-146.
16) Heidegger, *Grndbegriffe*. GA Bd 51 (1981a, 1991b) p.14
17) Heidegger, *Hölderlins Hymne* "Der Ister". GA, Bd 53 (1984) p.68
18) Ibid.

الحقوقي بها بوصفها ظاهرة سياسية أعطت لمثال الديمقراطية واقعة عينية (توكفيل). إنّ هيدغر يضع حدّاً للصورة "الحديثة" لأمريكا في المخيال الأوروبي و يرسم صورتها ضدّ-الأوروبية (anti-europeenne) ضدّ-الحديثة (.anti-moderne) إنّ أمريكا التي "أَوْرَبَتْ" العالم الجديد قد انقلبت فجأة إلى خطر حاسم على الوجود الماهوي لأوروبا، وذلك يعني على "الوطن" الأصلي للغرب. مرة أخرى تتكشف الصلة الجوهرية بين ماهية أمريكا و ماهية الحرب: إنّ أساس أمريكا هو الحرب بما هي "نزع للإقليمية" (deterritorialisation) عمّا هو "بدئيّ" في أرض ما و ذلك يعني في "وطن" ما. إنّ أمريكا هي في معركة جذرية دائمة مع "المكان" وكل حروبها هي حروب مكانية. ولكن ما معنى أن نخوض "حربا مكانية" ؟ وما الفرق بين الحرب المكانية و الحروب الأخرى؟

لقد وصف هيدغر دخول أمريكا في الحرب العالمية الثانية بأنّه " الفعلُ الأمريكي الأخير للاّتاريخية الأمريكية و تخريبها لذاتها. وذلك أنّ هذا الفعل هو رفض لما هو بدئي و قرار من أجل ما لا بدء له (."‏.) ‟das Anfanglos إنّ "الأمركة" (Amerikanismus) ليست صفة جغرافية هنا بل هي "قرار" ميتافيزيقي إزاء الموجود يتّخذ من "التقنية" بما هي "قشتال" – أي بما هي تدبير حسابي يستفزّ الموجود ويوضّعه قصد تسخيره واستعماله بلا حدود ،– نمط تأويله لمعنى وجودنا في العالم. ولذلك لا تعنى "اللاّتاريخية" في ماهية أمريكا مجرّد فقدانها لتاريخ طويل مثل العالم القديم، بل اللاّتاريخية هنا مكانية: إنّها تتعلّق بالعنصر "البدئيّ" الذي يؤدّي في السؤال عن معنى وجودنا في العالم دور مفهوم "الوطن". إنّ لا-تاريخية أمريكا تعني لا-بدئيّة و لا-وطنيّة العالم الذي تقيمه بدلا عن الذي تريد تدميره. إنّ "رفض ما هو بدئيّ" لا يعني رفض ما وقع في بداية تاريخ الغرب، بالمعنى الكرونولوجي، بل هو رفض لما لا يكفّ عن البدء في أفق الإنسانية الحالية، نعني "الوطن" الإنساني لأوروبا بوصفه نمطا مخصوصا من "المكان" /"السكن" و "المكان" /"الانتماء" إلى نمط من السؤال عن معنى الوجود في العالم. إنّ الحرب هنا هي حرب طوبولوجية ضد نمط مخصوص من المكان هو الوطن أو هو العنصر البدئيّ لأوروبا. لذلك يميّز هيدغر "الماضي" الطويل وبين "ما كان" (das Gewesene) : الماكان هو الزمان الأصيل لأنفسنا، نمط الهُوية الذي نتقوّم به في كل مرة. ومن ثمّ هو لا يكفّ عن أن يكون في كل مرة. إنّ ما كان لا ينقرض بل هو ما فتئ يأتي من المستقبل ويؤثّث اللحظة التي نعيشها بنمط من الوطن. إنّ حرب أمريكا ضدّ العنصر البدئي هي حرب ضد الوطن في معنى أنّها حرب ضدّ "ماكان" التاريخاني الغربي الذي لا يكفّ عن الإقبال إلى أنفسنا من جهة المستقبل.

ولأنّ أمريكا هي الصيغة الأخيرة من القرار الميتافيزيقي إزاء الموجود ولأنّ الميتافيزيقا، أي نمط تدبير الموجود بواسطة موجوديته المحضة، هي تقليد أوروبي، فإنّ هيدغر لا يرى في دخول أمريكا الحرب غير "تخريب ذاتي" (Selbstverwustung)، وبالمعنى الحرفي هذه الحرب هي "تصحير" للوطن، إذْ أن Verwustung مكوّن من الجذر اللغوي die Wuste بمعنى "الصحراء". ومتى فاض الخاطر للتوّ بجملة نيتشه الشهيرة التي سيقف عندها هيدغر طويلا ضمن ما معنى أن نفكّر (1952)، نعني قوله ضمن حديث " بنات الصحراء" (من **حدث زرادشت قال**، القسم الرابع) :

"إنّ الصحراء قد اهتزّت و ربت : فتعسا لمن كانوا للصحاري يحجبون"

إنّ نبوءة زرادشت قد تحقّقت: إنّ أمريكا هي "حجب" مستمرّ للعنصر البدئي في تاريخ

أوروبا، وذلك أنّها حرب ضدّ المكان الأصلي، "تصحير" للوطن.

ولكن، قد يقول قائل، : أليس هناك وجه آخر لأمريكا تاه عنه هيدغر؟ - يبدو أنّ دولوز قد أخذ على عاتقه أن ينجز هذا الإمكان.

III - أمريكا/ "الريزوم" (Rhizome) : التراوح الإقليمي بين "جهاز الدولة" الهَووي و "آلة الحرب" المترحّلة

ليس في كتاب دولوز و غواطاري **الرأسمالية والفصام 2** (*Capitalisme et Schizophrenie 2*)، المعروف بعنوانه الصغير *Mille Plateaux* - ألف مسطّح ومسطّح ،- عن أمريكا كلام كثير، صفحتان وبعض الإشارات على الأكثر(19). وعلى ذلك فإنّ اهتمامهما بدلالة أمريكا طريف تماما: إنّه يقطع مع الطريقتين السابقتين في فهم الأمركة. إنّ أمريكا لا تعني هنا، كما لدى هيغل، "الروح على الحصان" الذي يقذف "الفائض" التأمّلي لأوروبا باتجاه "العالم الجديد" قصد نزع إقليميته البدائية وفرض إقليمية "الأزمنة الحديثة" عليه، وصفة "الحديثة" لا تعني لدى هيغل شيئا آخر غير الصيغة المعلمنة من الزمان المسيحي؛ ولا هي تعني، كما لدى هيدغر، القشتال الأوروبي الذي جُنّ و أخذ يخرّب نفسه كحيوان تقني ما بعد-لاهوتي ، فصارت أمريكا تحارب مهدها الأوروبي بواسطة البايديا (*paideia*) الميتافيزيقية نفسها. أجل، إنّ أمريكا دولوز/غواطاري هي أيضا في علاقة ماهوية مع الحرب، ولكنّها لم تعد حربا تأمّلية أو تاريخانية؛ إنّ حسّ العدالة فيها لم يعد مؤسّسا على تاريخ العالم ولا على تاريخ الوجود. إنّه كفّ عن أن يكون متعلّقا بكتابة "التاريخ" أصلا.

إنّ خطتهما مثيرة من أجل أنّها قد نقلت المسألة من منطق "التاريخ" إلى ميدان "الصيرورة". إنّ أمريكا التي يفكّران بها ليست حربا ضدّ الهنود الحمر، ولا هي تخريب داخلي للإنسانية الأوروبية. أمريكا الآن "ترتيب" (agencement) غير مسبوق للعلاقة مع "الأرض" بوصفها "إقليما" (territoire) ندخله ونخرج منه باستمرار، بحسب كثافة خطوط إقامة و هروب لا ينقطعان، خطوط إقامة وتنضيد وتقسيم ورسم للخرائط، ولكن أيضا خطوط هروب و نزع للإقليمية وكسر للحدود والحواجز. أمريكا هذه ليست "ذاتا" و لا "موضوعا" بل هي حسب عبارة دقيقة "un rhizome" - وهو ما يعني عادة " جذعا تحت-الأرض لنباتات ترسل براعم في الخارج وتبثّ جذورا مضرّة في جزئها السفلي". بأيّ معنى وبأيّ وجه ينبغي لنا أن نفهم تأويل دولوز/غواطاري لأمريكا بوصفها "ريزوما" ؟

نحن نقسّم مسعانا هنا إلى خطوتين، نجيب فيهما على التساؤلين التاليين:

أوّلا : ما معنى "الريزوم" بما هو مفهوم فلسفي ؟

وثانيا: إلى أيّ مدى يساعد التأويل "الريزوماطيقي" (rhizomatique) لأمريكا على استجلاء الصلة الإقليمية التي يقيمها دولوز/غواطاري بين "أمريكا" / "جهاز الدولة" الهَووي بطبعه و بين أمريكا / "آلة الحرب" المترحّلة في أصلها ؟

---

19) Gilles Deleuze / Felix Guattari, Capitalisme et Schizophrénie 2. **Mille Plateaux** (Paris : Minuit, 1980) pp. 29-30, aussi p. 37.
20) Ibid. p. 11
21) Ibid. p. 11.

– ما معنى "الريزوم" ؟ – ينطلق دولوز/غواطاري في تبيين هذا المفهوم من تمييز طريف بين نوعين من الكتاب. النوع الأول هو الكتاب الكلاسيكي. وهما يسمّيانه "الكتاب/الجذر" (le livre-racine) الذي تكون "الشجرة" فيه هي "صورة العالم" مثلما أنّ "الجذر هو صورة الشجرة-العالم"[20]. هذا الكتاب التقليدي هو "جهاز عضوي جميل ذو دلالة و ذاتي" يحاكي العالم و يتمثّله[21]. إنّه الكتاب/الصورة العاكسة للعالم (le livre-image du monde) ؛ أمّا الكتاب الآخر المبحوث عنه، فهو كتاب "ريزوماطيقي" أو "الكتاب/الريزوم" (le livre/ rhizome) الذي لا يصوّر العالم، لأنّه كتاب عن "الخارج" (le dehors)، أي عن المكان الذي لا تنظّمه " صورة و لا دلالة و لا ذاتية"[22].

ولكن ما الفرق بين "الجذر" (la racine) و "الريزوم" (le rhizome ?) – هذا الفرق ليس من جنس لغوي، إذْ أنّ *radicina* اللاتيني و *rhizoma* اليوناني يدلاّن على نفس الشيء: معنى "الجذر" في العربية. إنّ الفرق الفلسفي هو هذا: إنّ الريزوم هو جذع تحت-الأرض لكنّه ليس جذرا لأيّ شجرة. إنّه يقطع مع النموذج التمثيلي للجذر و الشجرة: فهو في ترابط مع أيّ شيء يباينه، على خلاف الجذر و الشجرة حيث لابدّ من نقطة و نظام واحد؛ وهو تعدّد محض وليس كثرة من الآحاد؛ وهو يمكنه أن يقطع مع أيّ شيء دون أن يعطي لذلك أيّة دلالة خاصة، إذ هو يستطيع أن يستأنف نفسه في أيّ موضع آخر؛ و الريزوم لا يمكن أن يُقاضى أمام أيّ نموذج بنيوي أو نشوئي، وذلك أنّه بعيد عن منطق الشجرة القائم على منطق النسخ والتكاثر[23]. إنّ الريزوم "خارطة و ليس ناسخة" (carte et non pas calque)[24]. الريزوم خارطة : تجريبية وبنائية ومفتوحة و موصولة بكل أبعادها و لها مداخل متعددة و إنجازية. الريزوم "عشب" (une herbe) وحر، وليست "شجرة" لها جذر واحد. إنّه "ذاكرة قصيرة المدى" (سرعة وحركة وانزياح وخط) وليس "ذاكرة طويلة المدى" (عائلة،نوع بشري، مجتمع، حضارة)[25].

وأطروحة دولوز/غواطاري هي: أنّ الغرب قد فقد النموذج "الريزوماطيقي" للتفكير لصالح نموذج "الشجرة"[26]. والحال أنّ "التفكير ليس شجريا و المخّ [البشري] ليس مادة مجذّرة (enracine) زولا مفرّعة [...] إنّ لكثير من الناس شجرةً مزروعةً في رؤوسهم، لكنّ المخّ [البشري] نفسه هو عشب أكثر منه شجرةً"[27]. ولكن ما حال "المشرق" (l'Orient) ؟ فالسؤال ما يلبث أن يعرض: هل يوجد في المشرق نموذج "ريزوماطيقي" مغاير للنموذج الغربي للشجرة؟

إنّ المثير هو أنّ دولوز /غواطاري لا يتحاشيان هذا السؤال بل يطرحانه لكنّهما لا يجيبان عنه. إنّهما سرعان ما يمرّان إلى إبراز طرافة أمريكا في أفق الفهم الريزوماطيقي للمكان، قائلَين: " إنّه ينبغي أن نولي مكانة مستقلة لأمريكا"[28]. فما هي أمريكا دولوز /غواطاري ؟

– إنّ أمريكاهما هي أمريكا /الريزوم. ويعني بذلك هذا النمط من الحركة في الأرض بوصفها إقليما مفتوحا على "خارجية محضة" (une exteriorite pure) لا يقوى "جهاز الدولة" (l'appareil d'Etat) على ردّه إلى عنصره السيادي الذي يتقوّم به. هذه الخارجية المحضة هي الفضاء الخاص بالتفكير "الريزوماطيقي"، الذي برئ من "المرض الأوروبي" بامتياز، أي مرض

22) Ibid.
23) Ibid. p. 34.
24) Ibid. p. 20.
25) Ibid. p. 24.
26) Ibid. p. 28
27) Ibid. p. 24.
28) Ibid. p. 29.

"المفارقة" (transcendance) والذي كان يجد دوما في جهاز الدولة من جهة و في التقليد التأسيسوي للفلسفة الغربية سنده السري.

من أجل ذلك اضطرّ دولوز/غواطاري إلى رسم فاصل منهجي دقيق بين دلالتين لأمريكا: أمريكا "الأوروبية" التي تقيم في "الشرق" (l'Est)، أمريكا التقليدية التي تخضع لـ" سيطرة الشجر و البحث عن الجذور" و هو ما يتجلى في "التنقيب عن هَوية قومية (entite nationale-id) بل وحتى عن نسبيّة (ascendance) أو جينالوجيا أوروبية"[29]. أمّا أمريكا/الريزوم فهي أمريكا "الغرب"(l'Ouest) حيث يفترض دولوز/غواطاري " أنّ كلّ ما وقع من أمور هامة وكلّ ما يقع من أمور هامة، إنّما يسلك سلوك الريزوم الأمريكي" الذي تخلّى عن نموذج الشجرة و الجذر ليأخذ نموذجا أكثر فرادة يسميه دولوز نموذج "أوراق العشب" (les feuilles d'herbes)[30]. ولكن ما هو الجديد في أمريكا هذه؟

يقول دولوز /غواطاري :" إنّ الجهات لم تعد هي نفسها في أمريكا: إنّما في الشرق (l'Est) صار يتمّ البحث الشجري و العودُ إلى العالم القديم. في مقابل ذلك ثمّة الغرب (l'Ouest) الريزوماطيقي، بهنوده الذين لا نسبَ لهم، وحدّه (sa limite) الهارب باستمرار، و حدوده (ses frontiere) المتحركّة والمنزاحة عن أماكنها. ثمّة "خارطة" كاملة في الغرب، حيث أنّه حتى الشجر نفسه قد قام مقام الريزوم. إنّ أمريكا قد قلبت الاتجاهات: لقد جعلت مشرقها (Orient) في غربها (Ouest) ، كأنّ الأرض قد أصبحت مدوّرة بالتحديد في أمريكا؛ إنّ غربها هو الحدّ الغامض أصلا لشرقها (Est). (ليس الهند [...] هو الذي يشكّل الوسيط بين المغرب و المشرق (l'Occident et l'Orient) ، بل أمريكا هي التي تشكّل محور و آلية الانقلاب [...]

إنّ كلّ شيء يجتمع في أمريكا، الشجرة و القناة معا، الجذر و الريزوم. فلا توجد رأسمالية كونية وفي ذاتها، فالرأسمالية هي في مفترق طرق كل أصناف التشكيلات، إنّها دوما رأسمالية جديدة في طبعها، هي تخترع للأسوأ، وجهها المشرقي و وجهها المغربي، و ترميمها للاثنين."[31].

يتبيّن بذلك أنّ الريزوم الأمريكي هو حركة في "الخارج" (le dehors) الذي يفلت من سيادة جهاز الدولة و هوسه "الهَووي" و"القومي"، أي الهوس "الجذري" و "الشجري" و"التأسيسي" و"التاريخي". إنّ الريزوم الأمريكي ليس نظاما أو وحدة أو حتى كثرة من الآحاد، بل هو تعدد محض: إنّه ليس وحدة بل أبعاد وجهات متحركة ، ليس له بداية و لا نهاية، بل هو دوما "وسط" (un milieu)· و بلا بنية، لكنّه مؤثث بكم متعدد من الخطوط والرسوم الآتية والهاربة، المقيمة والمترحلة. إنّه ليس شجرة قومية ولا جذر هَووي بل هو "جينالوجيا- مضادة" (genealogie-anti) أو هو "ذاكرة قصيرة أو ذاكرة مضادة (anti-memoir [32])" ولذلك فالريزوم لا يؤسس الإقامات الحضرية بل هو "يعمل بواسطة التنويع والتوسّع والغزو والقبض والوخز"[33]. إنّه لا يتألّف من الأسس والعقائد والأجهزة بل من هو "مشكّل من مسطّحات (plateau)"[34] ، والمسطّح هو " كلّ تعدّد يقبل الوصل مع تعدّدات أخرى بواسطة جذوع تحت-أرضية سطحية، بحيث تشكّل و تمدّ ريزوماً."[35].

29) Ibid.
30) Ibid.
31) Ibid. pp. 29-30.
32) Ibid. p. 31.
33) Ibid. p. 32.
34) Ibid.
35) Ibid. p. 33.
36) Cf. ibid. pp. 592 sqq.

من أجل ذلك لن نفهم أمريكا بكتابة التاريخ بل إنّ ما نفتقد إليه هو "نومادولوجيا" (ne nomadologie.) والنومادولوجيا هي كتابة "الخارج" (le dehors)، أي هذا "الفضاء الأسيل" (l'espace lisse) الذي يتشكّل و يمتدّ خارج سيادة الدول لأنّه لا يقبل أن يُردّ إلى أيّ واحد من أجهزتها السياسية أو العسكرية، أي لا يقبل أن يختزل في بنية "الفضاء المخطّط" (l'espace strie) الذي تنشر الدولة داخل حدوده نمط الانتماء الهَووي إليها(36).

إنّه هنا تحديدا تتنزّل طرافة التخريج الذي يمنحه دولوز/غواطاري لمسألة "الحرب" : إنّ الحرب ليست من اختراع الدول، وهي ظاهرة لا تصبح في خدمة الدول أو أداة من أدواتها إلاّ عرضا(37).

يقول دولوز/غواطاري:" إنّ الرحّل قد اخترعوا آلة الحرب (machine de guerre) ضدّ جهاز الدولة (appareil d'Etat). أبدا، لم يفهم التاريخ, نزعة التّرحّل (nomadisme)، أبدا ، لم يفهم الكتابُ الخارجَ (le dehors). وأثناء تاريخ طويل، كانت الدولةُ هي نموذجَ الكتاب والتفكير : اللوغوس، الفيلسوف-الملك، مفارقة المثال، باطنية المفهوم، جمهورية العقول، محكمة العقل، موظّفو الفكر، الإنسان المشرّع و الذات. ادّعاء الدولة أن تكون الصورة المستبطنة لنظام ما للعالم، وأن تجعل للإنسان جذورا. لكنّ علاقة آلة الحرب مع الخارج، ليست "نموذجا" آخر، إنّها ترتيب (agencement) من شأنه أن يجعل الفكر نفسه مترحّلا (nomade)، ويجعل الكتابَ قطعةً من أجل كلّ الآلات المتحرّكة وجذعا من أجل ريزوم ما."(38).

إنّ تأويل دولوز/غواطاري لدلالة أمريكا قد أفضى إلى هذا : علينا أن نميّز بين أمريكا /جهاز الدولة الهَووي، المسكون بعين الهاجس الكلاسيكي للسيادة التي تزعم البحث عن الجذر والشجرة لترسيخ إقامة الإنسان في موضعه القومي،- و بين أمريكا/ الريزوم، أمريكا /الرحّل الذين اخترعوا "آلة الحرب" واستعملوها ضدّ الفضاء المخطّط لجهاز الدولة. إنّ ماهية الحرب إذن "مومادولوجية" وليست عسكرية. إنّها ليست في يد الدول إلاّ عرضا. وذلك أنّ من طبيعة الحرب أن تخترع "الفضاء الأسيل" الذي هو "خارجية محضة" تصمد أمام كلّ أطماع الدولة السيادية في ضمّه إلى "الفضاء المخطّط" الذي لا توجد إلاّ ببنائه و فرضه في كل مرة. إنّ الدول قد سرقت "آلة الحرب" من الرحّل و ردّته إلى "مؤسسة عسكرية" ليست حربية إلاّ عرضا. إنّ المؤسسة العسكرية هي حيلة الدول في تفريغ آلة الحرب من طبيعتها النومادولوجية و تحويلها إلى أداة إقامة و أقلمة و تحديد. إنّ "آلة الحرب" التي اخترعها الرحّل سابقة على "الحق" (le droit) الذي يدّعيه "جهاز الدولة" عليه: إنّها تأتي من مكان آخر تماما(39). ويعترف دولوز/غواطاري بأنّه إذا كان "الطابع الخارجي" لآلة الحرب يظهر في كل مكان فإنّه يبقى من الصعب التفكير فيه بما هو كذلك(40).

يقول دولوز/غواطاري :" ينبغي أن ننجح في التفكير في آلة الحرب بوصفها هي نفسها شكلا محضا من الخارجية، في حين أنّ جهاز الدولة إنّما يمثّل شكل الباطنية التي نأخذها عادة بوصفها نموذجا. [...] إنّ ما يعقّد كلّ شيء هو أنّ هذه القدرة الخارجية لآلة الحرب قد تنزع ، في بعض الظروف، إلى أن تختلط مع هذا أو ذاك من رؤوس الدولة. تارةً هي تخلط نفسها مع العنف السحري للدولة، وطوراً مع المؤسسة العسكرية [...] وباختصار، في كل مرة يقع الخلط بين انبثاق القدرة على الحرب و بين خطّ هيمنة الدولة، إنّما يمّحي كل شيء، ولم نعد نستطيع أن نفهم آلة الحرب إلاّ تحت أنواع السالب، بما أنّنا لا نترك شيئا ليصمد خارج الدولة نفسها. ولكن، متى أعدناها إلى وسط الخارجية التي من شأنها، تظهر آلة الحرب من نوع آخر، من طبيعة أخرى و من أصل آخر. [...] **ليس للدولة بنفسها آلة حرب**؛ إنّها لن تمتلكها إلاّ في شكل مؤسسة عسكرية، وهذه لن تكفّ

37) Ibid. ch. 12.
38) Ibid. pp. 35-36.
39) Ibid. p. 435
40) Ibid. p. 438
41) Ibid. pp. 438-439

عن إثارة المشاكل لها. من هنا يأتي توجّس الدول من مؤسستها العسكرية، وذلك من جهة كونها ترث آلة حرب مخارجة لها."[41].

إنّ رأس الصعوبة هو: كيف تحافظ آلةُ الحرب المترحّلة على خارجيتها المحضة بإزاء جهاز الدولة الذي يسعى دوما إلى ردّها إلى مؤسسة عسكرية تحت تصرّفه ؟ كيف يمكن لآلة الحرب أن تبسط هذا الوسط من الخارجية المحضة الذي ما فتئ رجل الدولة الغربي و رجل الفكر الغربي يحاول أن يحدّ من وجوده[42]. ولكن هل ما يزال وجيها التفكير اليوم بمصطلحات مثل "الخارج" و "الداخل" في فهم الطابع "اللاّ-إقليمي" لأمريكا /الريزوم ؟ ذلك إشكال يبدو أنّه قد نال نقلة طريفة تحت قلم نغري /هاردت.

IV- **أمريكا والامبراطورية أو نغري /هاردت و أمريكا / "الشبكة"** (le reseau)

في الفصل الخامس من القسم الثاني من كتابهما الامبراطورية، وتحت عنوان طريف هو "السلطة على الشبكة: السيادة الأمريكية والامبراطورية الجديدة"[43]، حاول نغري/هاردت بيان طرافة أمريكا ليس فقط بالنظر إلى تاريخ المفهوم الحديث للسيادة الذي تأسست عليه الدولة/الأمة، حيث تبدو ثورتُها "لحظةَ تجديد و قطع عظيمين في جينالوجيا السيادة الحديثة" و يبدو مشروعها الدستوري كأنّه تفتّح "وردة نادرة في تقليد السيادة الحديثة"، بل أيضا بالنسبة إلى "تمييز الأسس التي تكوّنت عليها سيادة امبراطورية جديدة"[44]. إنّ فهم أمريكا شرط طريف لفهم نمط السيادة الجديد الذي أخذ يتصرّف في مصير العالم في ضوء فكرة "العولمة".

- أمّا أوّل مقوّم خاص بأمريكا حسب نغري /هاردت فهو بناء مفهوم جديد للسلطة.

يقولان :" ضدّ التعالويّة المتعبة للسيادة الحديثة، معروضةً في شكل هوبزي أو روسوي، اعتبر المؤسّسون الأمريكان أنّ الجمهورية وحدها يمكنها أن تفرض النظام داخل الديمقراطية، بمعنى أنّ نظام الجمهور (multitude) لا يجب أن يتولّد من نقل لعنوان السلطة و الحق، بل من اتفاق داخلي للجمهور، من تفاعل ديمقراطي للسلطات المربوطة فيما بينها في شكل شبكة. [...] لم يعد هناك من ضرورة أو مكان للطابع المفارق للسلطة."[45]

إنّ أمريكا قد أسست نفسها على نمط "دنيوي" و "محايث" للسلطة، بوصفها تتكوّن من "سلسلة من السلطات التي تنتظم بنفسها و تتوافق من تلقائها داخل شبكة"[46]. إنّ المجاز الذي يتكرر هنا هو "الشبكة". ووجه الطرافة في فهم السلطة بوصفها شبكة هو تخليصها من أيّ مفارقة أو لغزية أو قداسة. إنّ أمريكا الحديثة قد بنت "نصوصها" على نزعة "دينية عميقة"، وعلى ذلك هي قد نجحت في تملّك و تنشيط التراث الثوري "الدنيوي" لإنسانوية عصر النهضة، متى قرأناها من زاوية ماكيفلي معيّن، ذاك الجمهوري الذي كشف أوّلا أنّ السلطة هي "سلطة

---

42) Ibid. pp. 440-441
43) M. Hardt / A. Negri, Empire (Paris : Exils Editeur, 2000), pp. 205-230.

43) تمّت بعدُ ترجمة قيّمة لهذا الكتاب العمدة في الفلسفة السياسية الراهنة من طرف فاضل جتكر و راجعها رضوان السيد. را: مايكل هاردت وأنطونيو نيغري، **الامبراطورية**. امبراطورية العولمة الجديدة (الرياض: العبيكان، 2002) صص 242-272.

44)Ibid. p. 205-206.
45) Ibid. p. 206.
46) Ibid. p. 207.
47) Ibid. p. 208.

تأسيسية (*pouvoir constituant*) - بمعنى نتاج لحركيّة اجتماعية داخلية و محايثة"، وثانيا أنّ " المدينة هي سلطة تأسيسية مكوّنة بواسطة تعدّد النزاعات الاجتماعية"، وذلك من قبل أنّ "النزاع [...] هو قاعدة استقرار السلطة و منطق توسّع المدينة" (47).

- وأمّا ثاني مقوّم لدلالة أمريكا الحديثة فهي بلورة مفهوم جديد للسيادة. ويحصي نغري/هاردت ثلاث سمات خاصة بهذه السيادة.

يقولان :" إنّ الخاصية الأولى للمعنى الأمريكي للسيادة هو كونها تطرح فكرة محايثة السلطة، في مقابل الطابع المفارق للسيادة الأوروبية الحديثة. وفكرة المحايثة هذه مؤسّسة على فكرة الإنتاجية. [...] إنّ الجمهور الذي يشكّل المجتمع هو منتج. لذلك فالسيادة الأمريكية لا تتمثّل في ضبط الجمهور، بل هي تتبلور بوصفها نتيجة تضافر الطاقات المنتجة للجمهور. [...] وعلى ذلك فإنّ مبدأ الإنتاج المؤسِّس هذا إنّما يقود إلى - أو يُفسَّر بواسطة - عملية تفكّر ذاتي [...] إنّ ذلك هو الخاصية الثانية للمعنى الأمريكي للسيادة. ففي خضمّ تأسيس /تشكيل هذه [السيادة] على أساس سطح المحايثة، إنّما تنبثق أيضا تجربة التناهي الناتج عن الطبيعة النزاعية و المتعددة للجمهور نفسه. بذلك يبدو أنّ المبدأ الجديد للسيادة ينتج حدّه الداخلي الخاص. [...] غير أنّه بعد أن أقرّ بحدوده الداخلية، ينفتح المفهوم الأمريكي للسيادة بقوة عجيبة نحو الخارج، حتى لكأنّه يريد أن يقضي على فكرة المراقبة و على لحظة التفكّر في دستوره الخاص. إنّ الخاصية الثالثة لهذا المعنى عن السيادة هي بذلك نزعتها نحو مشروع مفتوح و توسّعي، يعمل على ملعب بلا حدود."(48)

إنّ جدوى هذا التشخيص هو كونه يمكّننا من التمييز بين "اتساع" السلطة /الشبكة و بين "النزعة التوسعية للحكام المفارقين أو للدول القومية الحديثة"(49). فاتساع الشبكة "يستوعب ولا يستبعد"، لأنّه مؤلَّف من "شبكة تأسيسية من السلطات والسلطات المضادة"، هي لئن كانت قائمة على "اتساع امبراطوري" فينبغي أن نميّزها بشدة عن أيّ توسّع "امبريالي"(50).

يقولان : "إنّ فكرة السيادة بوصفها سلطة آخذة في الاتساع في شكل شبكات هي محفوظة بشكل متوازن عند ملتقى الطريق الذي يجمع بين مبدأ جمهورية ديمقراطية وفكرة الامبراطورية. فهذه الأخيرة لا يُمكن أن تُتصوّر إلاّ على شكل جمهورية كونية، شبكة من السلطات والسلطات المضادة ذات بنية معمارية استيعابية وبلا حدود. هذا الاتساع الإمبراطوري ليس له أيّ علاقة بالإمبريالية." (51)

- بذلك فإنّ المقوّم الثالث للمعنى الأمريكي للسيادة هو "الحدود المفتوحة". بأيّ معنى ؟

من اللافت للنظر أنّ نغري /هاردت يقيمان صلة بنائية بين التاريخ الدستوري للولايات المتحدة و بين مراحل تحقيق ما يسمّيانه "السيادة الامبراطورية". فهما يحصيان أربع أطوار في ذلك التاريخ هي تواليا : أ- طور يذهب من الإعلان عن الاستقلال إلى الحرب الأهلية ؛ ب- طور يمتد من إمبريالية روزفلت إلى إصلاحية ولسون الأممية ؛ ج- طور من فترة نيو ديل (New Deal) أو الصفقة الجديدة إلى الحرب الباردة؛ وطور أخير دشّنته الحركات الاجتماعية في الستينات من القرن الماضي واستمر إلى تفكك كتلة الشرق(52).

إنّ الجملة التي تهمّنا هي هذه : " إنّ كلّ واحد من هذه الأطوار من التاريخ الدستوري للولايات المتحدة إنّما يخصّص مرحلة نحو تحقيق السيادة الامبراطورية."(53)

---

48) Ibid. p. 210-211.
49) Ibid. p. 212.
50) Ibidem.
51) Ibidem.
52) Ibid. p. 214.
53) Ibidem.

فبدلا من التحليل التقليدي للمضامين الحقوقية للدستور الأمريكي، انصرف نغري/هاردت بشكل طريف إلى استجلاء العناصر الطوبيقية في معنى السيادة الجديد: إنّها سيادة لا تعرف الحدود، بل حدود مفتحوة على نحو مبدئي. وما كان حلما مستحيلا في أوروبا، أصبحت أمريكا عنوانا كبيرا على إمكانه :

"إقليم بلا حدود قد فُتح أمام رغبة (cupiditas) الإنسانية و هذه صار يمكنها أن تتلافى أزمة العلاقة بين القوة (virtus) و القدر (fortuna) الذي كان قد أوقع في فخّه و أضلّ الثورة الإنسانوية و الديمقراطية في أوروبا. [...] وفي نطاقِ هذا الطور الأول نفسه أخذ بعدُ مبدأ جديد للسيادة يعلن عن نفسه : إنّ الحرية قد صارت سائدة، و السيادة قد حُدّدت بوصفها ديمقراطية على نحو جذري داخل سيرورة توسّع مفتوح ومستمرّ. إنّ "الحدّ" (frontiere) هو حدّ حرّية. [...] الحدّ والحرية هما في علاقة تضمّن متبادلة: كلّ صعوبة، و كلّ تحديد للحرية هو عائق ينبغي تخطّيه، عتبة ينبغي تجاوزها."(54)

غير أنّ عدم الاعتراف بحدود نهائية والحرص على إبقاء الحدود مفتوحة وفهم الحدود بوصفها لا تعدو أن تكون تخوما أو عتبات علينا كسرها و تخطيها، إنّما هي علامات لا ريب فيها على أنّ أمريكا هي برنامج مبدئيّ لملاقاة الآخرين ودحرهم إلى ما لا نهاية. إنّها تستمدّ ماهيتها من إرادة حرب أو من أفعال حربية أصلية في فهمها لنفسها. إنّ قصّتها أو قصة حريتها هي قصة حدودها و إصرارها على الاستقلال بوصفه فتحا مستمرا للحدود. ولذلك فمعنى أمريكا لا ينفصل عن "طوباوية الفضاءات المفتوحة" (55).

إنّه عند هذا المفصل من فهم أمريكا لنفسها علينا أن نضع إبادة الهنود الحمر. فلا تكون الحدود مفتوحة إلاّ بقدر " ما نتجاهل على نحو إرادي وجودَ السكان الأصليين – بمعنى أن نتصوّرهم كأنّهم طبقة على حدة في النوع الإنساني، جزء تحت-إنساني من المحيط الطبيعي."(56) وبالرغم من أنّ ذلك يؤدي إلى تناقض صارخ بين ما يقوله الدستور عن الحرية و بين إبادة الهنود الحمر، فإنّ هذا الدستور لم يعش هذا التناقض "كأزمة" بل اكتفى بإقصاء ضحاياه خارج آلته الحقوقية(57).

ولكن لأنّ الأمريكيين ليسوا من جنس واحد، ولأنّ ممارسة الديمقراطية بوصفها فضاء مفتوحا هي متلازمة مع "مفهوم مفتوح و ديناميكي للشعب والجمهور والناس"، ولأنّ الأمريكيين "شعب في هجرة / خروج (*un peuple en exode*) محتلّ لأقاليم جديدة فارغة (أو أُفرغت)، فإنّ الفضاء الأمريكي، منذ البداية، لم يكن فقط فضاء متوسّعا [إلى الخارج] (extensif) و بلا حدود، بل أيضا فضاء متكثّفا [إلى الداخل] (intensif) : فضاء تقاطع، مصهر (melting pot) تهجين مستمرّ." (58)

إنّ النتيجة الخطيرة لهذا التصوّر للشعب الجمهوري بوصفه مصهر تهجين للأعراق المختلفة هي بالأساس "تدمير الفكرة المتعالية للأمة" والعمل على إعادة بناء الفضاء العمومي على أساس "الهجرة الحرة للجماهير"(59).

– غير أنّ الفضاء الأمريكي قد بدأ يكتشف في أواخر القرن التاسع عشر و إلى حدّ الحرب

54) Ibid. p. 215.
55) Ibid. p. 216.
56) Ibidem.
57) Ibidem.
58) Ibid. p. 217.
59) Ibidem.
60) Ibid. pp. 219 sq.

العالمية الأولى أنّ حدوده لا يمكن أن تكون بلا حدود. لقد ظهرت واقعة جديدة : إنّها "انغلاق الفضاء الامبراطوري"[60] الذي ظلّ يحرّك الاندفاع الدستوري الأمريكي إلى حدّ تلك اللحظة. من البحر إلى البحر، انتهت لعبة الإبادة، و وقفت أمريكا على حدود مغامرتها. وصار المشكل المطروح هو إمّا التحوّل إلى سيادة إمبريالية على النمط الأوروبي، أي نقل بنية الدولة-الأمة إلى العالم، وإمّا العودة إلى مشروع السيادة الجديد، أي السيادة /الشبكة القائم على الدستور /الشبكة. اقترح ت. روزفلت الخيار الأول، في حين نادى و. ولسون بالخيار الثاني. غير أنّ الحلّين يسعيان بطريقتين مختلفتين إلى استخراج المنطق العميق للدستور الأمريكي: أنّه قام على فكرة "الامبراطورية المتوسّعة" (Empire expansif)[61] في معنى "امبراطورية الحرية"[62].

ليست أمريكا الحالية غير بنية هذه المراوحة و منطقها:

"هذا المشروع الامبراطوري - مشروع عالمي للسلطة في شكل شبكة - إنّما يعرّف الطور (أو نظام الحكم) الرابع للتاريخ الدستوري للولايات المتحدة. [. ..] وإنّ حرب الخليج قد كانت المناسبة الأولى بالنسبة له لممارسة هذه السلطة في تماميتها."[63]

إنّ الجديد هو امتشاق أمريكا لنوع جديد من "الحق العالمي" هو لئن كان يقوم على "دعوى كونية كاذبة" فهي تقوم به "بطريقة جديدة". لقد نجحت في بيان فرق واضح بين لعب دور الشرطي العالمي بشكل يختلف إلى حدّ كبير عن شرطي الدول القومية: إنّ المصلحة العامة الجديدة ليست "مصلحة إمبريالية"، أي مصلحة دولة قومية معيّنة، بل "مصلحة إمبراطورية" تريد أن تتأسّس على "نظام عالمي جديد"[64].

لكنّ مشكلا عويصا ما يلبث أن يظهر: إنّه مشكل "الشرعية". كيف يمكن إضفاء المشروعية على النظام الإمبراطوري للعالم إذا كانت السيادة الجديدة مدعوة للعمل خارج نطاق الدول القومية و دساتيرها ؟ إنّ الشرعي (legitime) الجديد ربما لن يتطابق مع ما كنا نعتبره "قانونيا" (legal) إلى وقت قريب[65]. إنّ الشرعي الجديد شرعي امبراطوري، لا يظهر إلاّ لأنّ سياقا عالميا قد فرض الحاجة إليه. وتلك خاصية في معنى الامبراطورية[66]. إنّها كسر مستمر للحدود القومية التي تريد أن تصبح حدودا إمبريالية، نعني لمصلحة شعب دون آخر. وليست أمريكا أقرب أنواع الدول إلى الامبراطورية إلاّ لأنّ دستورها نفسه قد تضمّن منذ البداية "نزعة إمبراطورية"، ولا يعني ذلك مرة أخرى أنّه دستور "إمبريالي"[67] . إنّه دستور إمبراطوري في معنى أنّه تأسس على " نموذج مزدوج: إعادة مفصلة لفضاء مفتوح و إعادة اختراع لعلاقات متباينة و متفردة باستمرار في نطاق شبكات تقطع أرضا بلا حدود"[68].

خاتمة : أمريكا و المسلم الأخير

علينا التوضيح أنّ "المسلم الأخير" ليس فردا ولا دولة ولا أمة، بل هو نوع إنساني جديد لم يعرفه العرب و المسلمون أنفسهم. إنّ المسلم الأخير هو نمط من المعيش الذي يتّخذ من

61) Ibid. pp. 221-222.
62) Ibid. p. 224.
63) Ibid. p. 227.
64) Ibid. p. 228.
65) Ibidem.
66) Ibid. p. 229.
67) Ibid. pp. 229-230
68) Ibid. p. 230.

خارجيته المحضة إزاء جهاز الدولة الحديث فضاءه الخاص. لنقل في لغة دولوز: إنّ المسلم الأخير هو الشكل "الريزوماطيقي" من الإقامة في إقليم "الإسلام" في معنى جديد تماما: الإسلام هنا ليس دينا ولا ملة ولا انتماء قوميا ؛ إنّه خارطة نومادولوجية لرهط من الرحّل الجدد في فضاء ثقافتنا التي ولدت هي نفسها في علاقة ماهوية مع نمط "المسطّحات" الخاص بالشرق أي مسطّح "الصحراء". إنّ طرافة المسلم الأخير تكمن في كونه قد استأنف "آلة الحرب" المترحّلة التي اخترعها أجداده حتى قبل أن يصبح الإسلام نفسه "جهاز دولة" ويردّها إلى إحدى أدواته الحاسمة. إنّ الخطر هنا هو أنّ المسلم الأخير قد حرّر آلة الحرب المترحلة من خطط الدولة السيادية و طفق يمارسها في "الفضاء الأسيل" الذي يصمد خارج الإقليمية التقليدية للدولة. ولأنّ ما يقود "آلة الحرب" حسب دولوز ليس "القانون" (la loi) بل نمط خاص من "الناموس" (le *Nomos*) ، فإنّ مشروع أمريكا القاضي سرّا بتأسيس "الدولة العالمية" أو "الكونية" التي تردّ "المعمورة" (*l'Oikoumene* اليونانية أو بعبارة حديثة la terre habitee)[69] إلى "فضاء مخطّط" هو القالب الوحيد لإنسانية الإنسان الحالي ولنمط سكنه في العالم،- هذا المشروع سوف يصطدم ضرورة بآلة الحرب المترحّلة التي تستمدّ قوامها من كونها التعبير الخاص بذلك "الخارج" الذي يفلت من سيادتها وسيطرتها. هذا الخارج صار منذ قليل الملكية الخاصة للمسلم الأخير.

غير أنّ ما يتألم له من يفكّر في أفق الجموع الإسلامية الحديثة بلا حداثة هو أنّ هذا المسلم الأخير ما يزال لم ينتصر بعدُ على نموذج الشجرة ولا على خطة الجذر في تأثيثه لإقليميته الخاصة. إنّه ما يزال باطنيا جدا ومفارقيا جدا. إنّ ترحّله ما يزال لاهوتيا جدا وإنّ خارجيته ما تزال هَووية جدا. إنّه ما يزال عاجزا من الداخل عن أن يخترع المدى "الريزوماطيقي" الذي يخصه.

وعلى ذلك فبين أمريكا والمسلم الأخير صلة سابقة : إنّه يشترك معها في مقامات الهجرة والتعدد والجمهور والفضاء المفتوح وغياب الحدود والسلطة /الشبكة. إنّ المسلم الأخير هو النمط غير الغربي الوحيد الذي ما يزال يصرّف مطالب كونية في السيادة على معنى العالم. - إنّ المسلم الأخير إمبراطوري بالعرض وليس مجرّد كائن سلفي بلا زمن. ومكمن الخطورة فيه أنّه لئن كان يشارك ما بعد المحدثين في إرادة تدمير جهاز الدولة القومية فهو لا يريد كسر حدود الحرية فيها، بل فقط تعويضها الكلبي بمغامرة دعوية مفتوحة شعارها السري هو العقيدة /الشبكة التي تنتهي إلى التغلب الروحي على الأمم و استباحة فضاءاتها العمومية بوصفها ساحات جهاد لامتناهية [70]. ولذلك فمستقبل المسلم الأخير ما يزال وراءه. إنّه لم يجرأ بعدُ على النظر أمامه بلا شروط.

---

69) H.G. Gadmer, «L'Europre et l'oikoumenè», in : La philosophie herméneutique. Avant-propos, traduction et notes Jean Grondin (Paris : P.U.F., 1996) pp. 221 sqq.

70) - را: ابن خلدون ، **المقدمة**. الباب الثالث.الفصل 33.